قضى أواخر حياته فى غمرة من النسيان لانخذال مذهب المطهرين الذى كان هو لسانه الناطق ، وباع ملحمته الذائعة الصيت لورّاق بدراهم معدودة ، وظل حقبة مهملا . وكبير النهضة الرومانسية وردزورث قضى زهرة عمره منبوذاً مُعْرَضاً عنه . وبعكس ذلك ما تنيسون فى حياته الى أوج الشهرة والاعجاب ، ولم يكد يقضى نحبه حتى هبط ذكره وانصرف الجيل التالى عن شعره

على أن تلك كلها أمثلة لتقلب الأذواق بتعاقب الأجيال ، وهو أمر طبيعى لا محيد عنه . وقد خلا الأدب الانجليزى أو كاد من تلك الظروف العاتية التى لابست الأدب العربى وتحكمت فى مصاير رجاله : فقد شب الأدب الانجليزى من عهد النزابث وقد اخترعت الطباعة ، واطرد رقى الطباعة وانتشار الكتب والصحافة والتعليم مع اطراد رقى الأدب ، ولم يخضع الأدب طويلاً لسيطرة الحكام ، وظل مرد الأمر فى تقدير الأدباء إلى الرأى العام المتعلم الذى يقوّم الأديب لفنه الخالص ؛ فان رانت على بصيرته غشاوة من تقليد موروث أو مذهب سائد أو مشادة محتدمة فى السياسة لم يلبث بعد أن ينجلى ذلك أن يعود إلى إنصاف من أجحف بهم وإسقاط من لم يستحقوا سالف تقديره

فالى أمرين اثنين يدين أعلام الأدب الانجليزى فى مراحله المتتالية بنباهتهم وخلودهم : نبوغهم الشخصى ، والذوق العام . وليس بين أقطابه الذين يعتد بهم من لا تؤهله عبقريته لما أوليه فى تاريخ الأدب من مكانة ، أو من هو مدين بخلود ذكره الى أهواء السياسة أو أغراض الحاكمين أو دسائس الأحزاب أو تحريف الرواة أو عبث النقاد

فالنابهون فى الأدب الانجليزى أكثر استحقاقاً لمكانتهم من النابهين فى الأدب العربى ، والخاملون المنبوذون فى هذا الأخير أكثر منهم فى الأول ؛ والأدب الانجليزى بما أحاط به من ظروف مواتية أسهل تأريخاً ودرساً من الأدب العربى . وهذا الأخير محتاج الى مراجعة ودرس طويل وتأريخ جديد غير التأريخ الذى جرى عليه العرف حتى الآن ليمنح كل أديب حقه من التقديم أو التأخير ، ويُزَحْزَحَ عن الصدر من لا تؤهلهم له آدابهم ونظراتهم فى الحياة ، ويستنقذ من يستطاع استنقاذهم من غمرة الخمول .

فتحى أبو السعود

٧٠٣٧

نابليـــون

وخطواته الأولى فى سبيل المجد

للأستاذ عبد المجيد نافع

تتمـــة

وشبت نيران الثورة فى باريس ، ودعت الحاجة إلى قمعها ، فأشاروا على باراس أن يعهد باخمادها إلى نابليون ، فعرض أن يوليه قيادة مجلس الأمة وأهله ثلاث دقائق ليفكر فى الأمر ملياً

فياعجباً للأقدار ! ثلاث دقائق ، ثم يتقرر مصير نابليون ، ومستقبل فرنسا ، لا بل مستقبل أوربا بأسرها

واستعرض نابليون الموقف ، فلم يتردد فى القبول حين رأى خمسين ألف جندى من جنود النمسا يظهرون على أسوار ستراسبورج ، والانجليز يحاصرون بوارجهم ثغر برست ، وحينذاك نسى خصومة الخصوم ، وعياءهم وعجزهم ، واستلهم الوطنية الحق فألهمته أن الوطن إذا أحدق به الأعداء وجب دفن الخصومات ، ودوس الحزازات ، ووضع اليد فى أيدى القائمين بالحكم مهما كانت صبغتهم وألوانهم ونزعات نفوسهم

فقال نابليون لباراس : إنى أقبل ولكنى أنذرك بأنى لن أرد السيف إلى غمده إلا بعد أن أعيد النظام إلى نصابه

وكذلك تجلى نابليون فى ثوب الوطنى الصادق والمحارب الصحيح الذى لا يطيق بحال أن تعرقل مساعيه أعمال السياسيين

وكان القبول فى الساعة الواحدة صباحا . فلما أقبل المساء إذا بباراس يعلن فى المجلس انتصار جنوده . فاذا جاء الغد رقى نابليون إلى رتبة قائد قسم ، وسمع الناس اسمه يتردد فى جوانب المجلس ، ثم يجتاز اسمه منبر الخطابة لينقش على صفحات الصحف فينفض عنه غبار الخمول الذى حجب اسمه عن الأسماع والأنظار ردحا من الزمن

وتقلد بونابارت قيادة الجيش فى الداخل ، واتخذ « فان » سكرتيراً له ، فكان هو الذى كتب أوامره حين بات فنصلاً

وهو هو الذى ، بعد أربعة عشر عاماً ، كتب وثيقة تخليه عن عرش فرنسا

وكان نابليون يختلف إلى صالون مدام تليان فرأى جوزفين فشغفته حباً ، وملكت عواطفه ؛ وكان فى السابعة والعشرين ، وكانت فى الثانية والثلاثين ، ولكنها كانت على جانب من الجمال والروعة فأضرمت نيران الغرام فى صدره

على أن الذين يحاولون تشويه شخصية نابليون يخلق البواعث غير الشريفة لأعماله ، وابتداع الحوافز لمشاعره ، تراهم يسارعون إلى القول بأن حبه لجوزفين إنما كان حباً مسرحياً ، وإن أكبر همه ، وغاية الغايات عنده أن يتذرع بذلك الزواج لتولى قيادة الحملة الايطالية

ولكنك قد رأيت كيف كان يتهالك وجداً على الزواج ، وكيف داعب الأمل بالاقتران بكليرى . وبعد فما هى العلائل والقصور التى كان يبنيها على الاقتران ببنت تاجر صابون !

ولو أنه لم يصادف هوى فى قلب مدام دى بوهارنيه ، إلا أنه وجد منها هند الزواج سميعاً ومجيباً ؛ فقد كانت ، على رغم موت زوجها ، ووجود ولد وبنت لها ، تحيا حياة خليعة ، وتتردد على مدام تليان ، وتغشى صالون باراس ؛ ومن كانت فى مثل حالتها كانت خليقة أن تستند إلى ذراع رجل قوى كنابليون الذى أصبح فى طليعة القواد وأنقذ فرنسا من الأخطار التى تتهددها

ولكن هل كانت جوزفين خليلة لباراس ؟ إن بعض الكتاب المعاصرين يتبرعون بهذا التأكيد . على أن الذى يسترعى النظر أن جوزفين لم تظهر فى بيت باراس إلا باعتبارها صديقة لمدام تليان . والمنطق والبداهة يتضافران على أن الأخيرة لم تكن لتسمح لكائنة من كانت أن تنازعها هوى الرجل القابض بكلتا يديه على مصاير فرنسا

وإذا كانت جوزفين ، قبل الزواج ، شاءت أن تستوثق من باراس ، سواء بنفسها أم بواسطة مدام تليان ، أن زوجها المقبل سوف يكون موضع رعاية حكومة الدير كتوار ، بل إذا كانت لمحت الى أن مكانه الحق أن يكون على رأس الحملة الايطالية ، فمثل أولئك لا ينبغى أن يكون مثاراً للدهشة ما دامت جوزفين قد أرادت بهذا الزواج وجه المصلحة لا وجه نابليون

ولما كاشفت جوزفين نابليون بحديث باراس وعزمه على تقليده قيادة الحملة الايطالية قال لها لا تحسبى أنى ألتمس حمايتهم بل على العكس من ذلك هم الذين سوف يشعرون بالسعادة حين أظلهم بحمايتى . إن سيفى إلى جانبى ، وبه سأصل إلى أبعد الغايات

ولو أتيح لك أن تطالع الرسائل التى خطها نابليون إلى جوزفين لقرأت فيها آيات الحب مسطورة ، ذلك الحب المضطرم الذى ظلت حرارته متأججة من يوم أن عرفها وهو يجبو فى طريق المجد إلى يوم بات فى ذروة القوة وقمة السلطان

على أن وضع الخطة لاجتياز جبال الالب والانحدار الى سهول لومبارديا والانقضاض على الجيوش النمساوية وسحقها سحقاً ، كل أولئك قد استغرق وقت نابليون واستنفد جهوده حتى قلت زيارته لجوزفين . ولم تكن إلا فى شهر يناير من عام ١٧٩٦ حيث تقدم لها بطلب الزواج ولقى ذلك الطلب قبولاً

وكانت جوزفين لا تزال مترددة ، فأحبت أن تفزع الى نصيحة موثق العقود الأستاذ راجيدو ، فلما أقبلت على مكتبه توسلت الى نابليون أن ينتظرها فى غرفة الاستقبال ، ولم يكن من شأن نصيحة كاتب العقود أن تنتشل جوزفين من غمرة التردد إذ قال لها : « إيه لك ! أو تتزوجين بجنرال لا يملك غير الكبود والسيف ؟ فاذا صح أنه يملك شيئاً فانما يملك كوخاً حقيراً ! إنه لجنرال صغير ، لا اسم له ، ولا مستقبل ! تجهم مرتبته وراء مراتب جميع قواد الجمهورية ! انه لخير لك أن تقترنى بمورد للجيش ! »

ولم يكن نابليون يسترق السمع ؛ على أن الباب كان نصف مغلق ، وبذلك تطاير إلى سمعه حديث موثق العقود ، فملك عواطفه ولم يتبس ببنت شفة ؛ ثم استطاع أن يثأر لكرامته الجريح بعد ثمانى سنين . ففى غداة حفلة التتويج ، استدعى الرجل الطيب راجيدو إلى قصر التويلرى وأعطاه مكاناً فى الصف الأول بكنيسة نوتردام حيث تقام حفلة تتويجه امبراطوراً لفرنسا ، وبذلك يتاح له أن يرى بعينيه التى فى رأسه إلى أية ذروة من ذرى المجد يستطيع الجنرال الصغير الذى لا مستقبل له أن يسمو بحركة موثق العقود الأستاذ راجيدو !

وفى ٢٣ فبراير غدى بونابرت قائداً عاماً للحملة الايطالية ،

وحدد للزواج يوم ٩ مارس سنة ١٧٩٦ . وفي أوراق الزواج أنقصت جوزفين من عمرها أربع سنين سوياً ، وزاد نابليون في عمره سنة كاملة ! فالتقى الزوجان في العمر وإن لم يتلاقيا في الحب !

على أن حملة المتهجمين على نابليون لا تقف عند حد . لذلك نرى جمهرة المؤرخين يعلؤون أفواههم بأن قيادة الحملة الايطالية كانت هي البائنة (الدوطة) التي أعطاها باراس الى جوزفين

ومهما يكن هذا القول جارحا لذاعا فانه يتجافى مع الحقيقة . فليس يجوز في عقل عاقل أن رجلا مثل باراس يجازف بتسليم القيادة الى قائد لا يقوى على الاضطلاع بأعبائها فيغامر بأقدس المصالح ، لا بل يقامر بمستقبل فرنسا

على أن الوقائع تهدم هذه الدعوى من أساسها ، وتضع قصة زواج نابليون بجوزفين في نصابها الحق ؛ فلم يكن باراس يملك التصرف وحده في مصير قيادة الحملة الايطالية بل كان لابد من موافقة الأغلبية في حكومة الديركتوار ؛ وقد كانت مؤلفة من كارنو وباراس وليبو وريبل ولوتورنور

وإذا جاز لنا أن نستصرخ ضمير رجل ، أو نفزع الى عدالة شاهد ، فأولى لنا ثم أولى أن نفزع الى ريفبير لوبو وقد كان لنابليون من ألد الخصوم ؛ وهو في ذلك يقول : « لقد قيل إن زواجه بأرملة بوهارنيه كان شرطا لا يستطيع بدونه أن يحصل على القيادة التي جعلها مناط آماله . إن ذلك لم يكن ! والذي أستطيع أن أؤكده هو أن الاختيار الذي تم من حكومة الديركتوار لم يكن تحت تأثير باراس ولا شخص غيره »

كيف إذن كان سبيل بونابرت الى تولي القيادة ؟ ينبغي لنا أن نذكر أن الجنرال الصغير قد وضع خطة لغزو بيدمون في ١٩ يناير وأن تلك الخطة قد أرسلت الى القائد العام شيرير ، فتلاها ثم بعث بها في الحال الى حكومة الديركتوار معلنا أنها من عمل مجنون ، وأنه لابد من استدعاء هذا المجنون وتكليفه بتنفيذها

فاختلط الأمر على حكومة الديركتوار ، واحتدم وطيس الجدل بين أعضائها ، وما لبثت الغالبية وقوامها ليبو وكارنو وباراس أن جنحت الى جانب نابليون ، وانحازت اليه لترجيح كفته ، فعهدت اليه بانفاذ الخطة التي وضعها

وفي الحق ، فما كان نابليون مدينا بتلك القيادة لا الى زواجه ، ولا الى باراس ، وإنما كان مدينا بها الى كفاية كارنو الحربية التي أمكنته من التعمق في درس الخطة التي وضعها نابليون ، وتفهم روحها ، فأتيح له أن يصل الى مكان الاقناع من نفوس زملائه

وما لبث نابليون أن انتزع نفسه من بين أحضان المرأة التي أحبها من أعماق قلبه ليبدأ سلسلة المعارك الدموية التي خاض غمراتها عشرين عاما

ومضى في طريق المجد صعدا ، لا يلوي على شيء ، ولا يقف في وجهه سهل ولا جبل ، حتى تألبت عليه أوربا بأسرها ، وظاهرتها في تألبها شر أنواع الخيانات

والآن نسأل : ماذا كان أثر ذلك المجد في نفس نابليون ؟ لقد كان يمكن أن ينسى نشأته ، وينتكر لعائلته ، ولا يأبه لعوز الموزين ، ولا يحفل ببؤس البائسين . على أن شيئا من ذلك لم يكن ، وظل نابليون في حاضر مجده ، كما كان في ماضي بؤسه ، ينطوي على أصدق الود لذوي قرباه ؛ لا ينسى يد الصنيعة لمن اصطنعها ، ولا تفتر حرارة اخلاصه لأصدقائه ؛ يشعر قلبه حب الواجب ، ولا يتطرق الى ارادته الوهن أو تصيب عزيمته الكلال

ما كان نابليون في مصاف الملائكة كما تخيله أنصاره ، ولا كان في عداد الوحوش الضارية كما تصوره خصومه ، وإنما كان رجلا عظيما خالدا في التاريخ ، وانسانا له عواطفه وأهواؤه ، ورذائله وفضائله

عبد المنعم رافع المحامي

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربي

في جميع عصوره

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع في زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفاً جديداً

الثمن ٢٠ قرشاً عدا أجرة البريد